عاقبة الطمع الندامة

رواية ممرَّبة عن الافرنسية بتصرُّف

في غاية كانون الثاني من السنة ١٨٤٦ كنت ترى في مستشفى المجانين في باريس شيخاً ناهز الثمانين من عمره مضطجعاً على فراش الموت وكان في ساعة احتضاره يذكر ثروته الواسعة ويرفع يديه الى الحضور كأنهُ يريهم ما في كيسهِ من الدراهم ويضحك لهم كأنهُ يرح في مجبوحة العزّ ويتقلَّب على سرير السلطنة

وان سألت عن اسم المذكور وسرّ احوالهِ أجبناك انَّهُ يُعرف بسيمون السكَّاف قضى سنيهِ الأولى في دَرْق النعال واصلاح الاحذية ثمَّ أُصيب بمسٍّ في عقلهِ فأُدخل في دار المجانين منذ سنة ١٨١٦ . امَّا جنونهُ فكان من الصنف الهادي فلا يناوي احداً ولا يأتي بأذًى بل كان يجد في مسّ عقلهِ لذَّة وبهجة فاذا غاب عن صوابهِ ظنَّ حالهُ اغنى من قارون فتمتَّع برخاء العيش واكل الطيّب وشرب المريّ وتبختر في مشيهِ عجباً وكل ذلك اضغاث احلام بل رُميَ من الجنون مُنيٍ بهِ قبل ثلاثين سنة

وكان الاطبَّاء يشخّصون مرضهُ ويدرسون كافَّة احوالهِ لعلَّهم يتوفَّقون الى ان يعيدوا اليهِ رشدهُ فكانوا يعالجهم يلطّفون داءهُ وربَّما اتَّصلوا الى ان يبدّدوا اوهامهُ حتى يكاد يعرف حقيقة حالهِ فيصيبهُ اذ ذاك من الالم واليأس ما يكدّر معاشهُ ويرنّق كأس حياتهِ فيتوسَّل الى الاطباء ان لا يسعوا في معالجتهِ لانهُ راضٍ بحاله فيدعهُ الأساة ولا تابث نوبة المرض تستولي عليهِ

وكأنك تقول ايها القارئ العزيز: ليس معلول بلا علَّة فكيف حلَّ ذاك الداء العياء بهذا المسكين فاطفأ نور عقلهِ واوجفهُ في عالم البرهات

دونك السرّ الخفي والخبر الحقيق - كان سيمون في حداثتهِ تعلَّم اصول السكافة عند احد ارباب هذه المهنة ولمَّا لم يجد في هذه الصنعة ما يقوم بارد حياتهِ واصبح لا يملك شروى نقير انضمَّ الى الثورة الفرنسويَّة التي ظهرت في تلك الاثناء وصار رئيسها وشُغف بمبادئها ورأى انَّ في صحبة الثائرين والمناداة معهم بالحريَّة والمساواة والاخاء اقرب وسيلة الى جمع المال وتحسين الحال. بيد انَّ مطامع رفقتهِ لم تقلّ عن مطامعهِ

الشخصية وبعد الليا والتي حصل على قطعة من الارض في ضواحي باريس على ربوة مطلة على المدينة يمتدُّ فوقها اليوم حيّ تروكاديرو احفل احياء باريس في عهدنا لكنها وقتئذٍ كانت خالية من السكّان لا يأوي اليها الّا بعض اهل الحرف والصعاليك

وكان في تلك الارض دار صغيرة او كوخ حقير فنضّد فيه سيمون ادوات صنعته في طابقه الاسفل وجعل لاهله الطابق الاعلى ورجع الى السكافة التي كان اهملها في ايام الثورة ليتال من شغله خبزهُ اليومي. فما مرَّ عليه بضعة اسابيع حتى اقبل عليه الزبون وتوفّر عليه الشغل الذي اكسبهُ دراهم مكّنتهُ من تأثيث دكانه فجهّزهُ ببعض الكراسي من القش وزيّن جدرانهُ بتصاوير ماونة زهيدة الثمن خشبة العمل. وبعد ذلك بسنتين جمع من الدراهم ما كفاهُ لاقتناء عرصة مجاورة لداره فجعلها كجنينة واتخذ لها سياجاً من الشوك. فكان يزرع فيها في اوقات الفراغ شيئاً من الخضر يضيفهُ الى طعامه وطعام اهله

فصار سيمون منذ عاد الى حرفته يقضي ايامهُ بالراحة والسلام ويكتفي بما قدّر لهُ بختهُ من الرزق لمعاشه ومعاش عائلته على انّ صاحبنا كان في ايام اندماجه باهل الثورة سمع كلامهم السفسطي واخذ مبادئهم الفاسدة فبقيت جذورها متأصلةً في نفسه لاسيما انهُ كان اهمل واجبات دينه فلم يجد في تعاليم الدين دواء لدائه. ومن سوء حظه انّ بعض زعماء الفتن كانوا زوّدوهُ بكتب جان جاك روسو وڤلتار وكُندُرسه فكان يقرأها حيناً بعد حين ليبعث في قلبه خواطر الكفر ويشحذ شفرة الحقد والبغض لكل سلطة شرعية ويؤجج نار المطامع لدفعة اهل الثورة. فكانت تلك الاهواء تتنازع قلبهُ وتهيّج سواكن عواطفه فيطمح بنظره الى الترفّع ويرغب في التبختر

وفي تلك الاثناء قام على فرنسة ذلك العامل الشهير بل السلطان الجبّار نابوليون الاوّل ففتح الفتوحات وقهر الممالك حتى طبّق اسمهُ الخافقين. فكان سيمون يسمع اخبارهُ ويطالع بكل رغبة تفاصيل فتوحاته فتزيد مطامعهُ في الدنيا وغناها ورفعتها وتلوح لهُ بوارق الامل ليخرج من خموله ويحصل على ما يؤهلهُ للمناصب الشريفة والرتب المنيفة لاسيما انهُ رأى نابوليون في اوّل نهضته وخدم معهُ في الجندية في فرقة واحدة. فكان يظنّ انهُ لو جدَّ مثلهُ لوجد

فكانت تلك الافكار تتقلب على قلب السكاف حتى لم يمكنهُ ان يحصرها في

نفسه بل كان يردّدها على مسامع بعض الصنّعة والمحترفين مثلهُ فاخذ هؤلاء يجتمعون عنده فيهوّسونهُ طمعاً في دراهمهِ ثم يسوقونهُ الى الحانات ليبتاع لهم خمراً على نفقتهِ فيشربون نخبهُ ويتمنّون لهُ تحقيق آمالهِ

*

في اواسط حزيران من السنة ١٨١١ كان نابوليون عاد الى باريس حاضرة مملكتهِ ظافراً ممجّداً اذ كادت كل دول اوربّة تعنو لسلطتهِ وتخرُّ امامهُ على الاقدام. وكانت الامبراطورة ماري لويزة قرينتهُ اولدت لهُ ابناً بنى عليهِ كل آمالهِ فدعاهُ ملك رومية

ثم نوى اكراماً للمولود الجديد ان يُشيّد لهُ قصراً فاخماً يكون اهلاً بجلالهِ فدعا بالمهندسين وصرّح لهم عن نيّتهِ وعهد اليهم ان يختاروا لذلك الاثر موقعاً مناسباً لهُ ولا يدّخروا وسعاً في ان يجعلوا البناء طرفةً من طُرَف الزمان

فما مرَّ على المهندسين ايّام قلائل حتى طافوا كل انحاء باريس وتفقّدوا احياءها فلم يجدوا مقاماً اجدر بالاثر المقصود من الربوة التي عليها كانت دار سيمون السكّاف فعرضوا الامر على نابوليون وساروا في خدمتهِ الى المكان ليعاينهُ بنفسهِ ويصادق على اختيارهم. فلمّا رقي الأكمة ورأى المنظر الجميل الذي تمتدُّ اليهِ الابصار على اطراف باريس من ميدان الجند المسمّى « شان دي مارس » الى منزل العجزة الذي اقامهُ لويس الرابع عشر لجرحى الحروب وعجزة الجيش. فسُحر بذلك المشهد الفتّان وصادق على اختيار المكان ليقع بصر ابنهِ الصغير اذا ترعرع على امّ المدائن فيعرف منذ نعومة اظفارهِ ما ينتظرهُ يوماً من عزّ السلطة وسموّ المقام

وفي غد ذلك اليوم جاءت فئة من المهندسين الى المحلّ المعيَّن وشرعوا في اخذ رسمهِ طولاً وعرضاً وقاسوا جوانبهُ ونصبوا الرايات الحضراء دلالةً على وجهة البناء ونواحيهِ وكانت دار سيمون داخلةً في حيّز القصر المنويّ . فاستبشر السكّاف بتلك الاعلام وامّل منها خيراً

فجاءهُ بعد يومين امرٌ من حاكم مدينة باريس بان يذهب الى مجلس البلديّة. فلبّى الامر مسرعاً ودخل على الحاكم الذي اعلمهُ بانَّ جلالة الامبراطور قد عوّل على تشييد قصر لولي عهدهِ في المكان المجاور لدارهِ. وانهُ يريد ان يبتاع منهُ تلك الدار الحقيرة بثمن خمسة آلاف فرنك وهي عشرة اضعاف ما تكلّف في شرائها (لاسيما ان الدراهم

في ذلك العهد كانت تساوي ضعفي ثمنها اليوم) فكاد سيمون يطير فرحاً لهذا النبأ لكنهُ كتم سرورهُ عن الحاكم واكتفى بقولهِ انهُ راضٍ بتلك الصفقة وسوف يوقع على صكّ البيع في اليوم التالي

ثم خرج من المجلس وهو ثمل من فرحه بالمال الموعود وجعل يتنقّل على رفقتهِ الضّنعة ويخبرهم بثروتهِ ويتفطرس امامهم ويتجبّر ويرى نفسهُ عما قليل سيّد عصره فكان رفقة سيمون يهنئونهُ بحسن حظهِ وسعد بختهِ حتى التفت اليهِ احدهم وقال :

لو كنتُ اباك لما رضيتُ بثمن خمسة آلاف فرنك بل طلبت عشرين الفاً . ألا ترى انَّ الامبراطور لا يمكنهُ ان يستغني عن حانوتك ليقيم قصراً لابنهِ

سمع سيمون هذا القول فنفذ في ذهنهِ وعاد الى دارهِ وهو يردّد بلسانهِ : « عشرين الف فرنك ! » نعم اني سأحصل على هذا المبلغ . ثمَّ انطرح على فراشهِ والذهب يبرق في عينيهِ فلم تكتحلا بسهاد وبقي ليلتهُ يتململ على فراشهِ ويكرّر قولهُ : « لا ارضى الّا بعشرين الف فرنك »

وفي ضُحى اليوم التالي عاد سيمون الى المجلس حيث كان في انتظارهِ كبير المهندسين ليُمضي صكّ البيع . لكنهُ اعلن بصوتٍ جهوري انه لا يتسلّل بالثمن الموعود بل يطلب عشرين الف فرنك

فلمّا سمع المهندس كلامه طردهُ من امامهِ وأعلم الحاكم بطمع السكّاف فكاد يُمثّال نابوليون يتميّزون غيظاً عليهِ لكنّهم صبروا أياماً وجاء ان يرعوي . فلم يتعمل . فرأى اصحاب الامر اخيراً ان يوافقوا سيمون على مطلوبهِ لاحتياجهم للمكان فارسلوا اليهِ الدراهم وطلبوا منه ان يوقّع على الحجّة

فعرف السكّاف من رجوعهم اليهِ انّهم لا يستغنون عن كوخهِ فردّهم قائلاً : قد طلبتُ عشرين الف فرنك فلم تؤدّوها لي بسرعة فانا لا ارضى الآن الّا بضعف هذا الثمن

فاستاء المهندسون من عمل الرجل اي استياء وعزموا على تحويل رسم البناء ليتجوا من عنت ذلك الطمّاع وباشروا بالعمل ووضعوا الاساس

امّا سيمون فلم يقطع الامل وكان يترقّب المشروع رجاء ان يحصل على مرغوبهِ وهكذا جرى بعد ثلاثة اشهر اذ رأى ارباب العمل انَّ ملك السكّاف يشوّه القصر

ويتزع عنهُ شيئاً من هندامهِ فعادوا الى صاحب الكوخ وطلبوا منهُ الدار بالثمن الذي طلبهُ اعني اربعين الفاً

الّا انَّ شيطان الطمع استفزَّ الرجل وأعمى بصرهُ فزاد في ثمن البيت لعلمهِ بأنَّهم يحتاجون اليهِ ولو طلب القناطير المقنطرة لما رفضوها عليهِ فأجابهم انهُ لم يعد يرضى باربعين الفاً. فارادوا ان يبيّنوا لهُ سوء فعلهِ وفحش مطامعهِ فلم يسمع لهم حتى بعد ان زادوا لهُ عشرة آلاف فرنك أخرى فقدَّموا لهُ خمسين الفاً بدل ارض ما كان احد يدفع لهُ فيها مائتي فرنك

فلمَّا ايسوا من اقناعهِ تركوهُ وذهبوا الى الامبراطور واخبروهُ بما جرى لهم مع ذاك السكّاف وكانوا كتموا عنهُ الامر قبلاً. فتنمَّر الامبراطور غضباً وكاد يرسل شرطاً ليوقفوهُ ويزجّوه في السجن الّا انهُ اخمد غضبهُ بعد هنيهةٍ ثم قال:

اني لأُوثر ان يُبنى القصر في محلّ آخر من ان اطاوع هذا الصعلوك فاذهبوا ولا تعودوا تذكرون لي اسمهُ فدعُوهُ يذهب الى لعنة الله وشيّدوا القصر كيفما شئتم

فبلغ الخبر سيمون فلم يضطرب لذلك بل كان يطوف حول البناء صباح مساء ثم يفرك يديهِ قائلاً: ان داري تساوي خمسين الفاً ولا بُدَّ ان احصل منها فوق هذا المبلغ

فمضت الأيام وكان البناء لا يزال يعلو في عنان السماء وسيمون لا يزال ينتظر بُناة القصر ان يأتوهُ ويؤدوا لهُ ما طلب منهم من المال. وكان عند اصحابهِ يفتخر بعملهِ ويُعد نفسهُ كاعظم اغنياء باريس. بل كنت تراهُ يتهامل في شغلهِ بل يخجل من اصطناع الاحذية واصلاح النعال وهو غني عندهُ من المال خمسون الفاً

فعلى ذلك القياس كان يقضي قسماً من الاسبوع في الملاهي ويعاقر المسكرات ويدعو اليها رفقتهُ وكان اذا طلبوا منهُ دفع حقّها يدوّنها في الدفاتر على حساب ثمن بيتهِ بل اخذ يفكّر في تشييد منزل عظيم يسكنهُ واهلهُ ويعيش فيهِ بالرخاء وخفض العيش. فبقي على هذه الحال نحو خمسة اشهر وديونهُ تزداد وليس احد من المهندسين يراجعهُ في اشتراء ارضهِ

*

وفي اثناء ذلك استعرت الحرب الروسيَّة فسار نابوليون بجيوشهِ الجرَّارة وأبطلت

اعمال البناء في غيبته اقتصاداً بالمال. فجرى للامبراطور ما جرى من النصرة التي صيّرتها الكسرة. وما لبث ان اضطرّته الدول الى التنازل عن الملك

فكان سيمون الكفّاف يتتبّع تلك الحوادث الخطيرة وكلّ فكره في بيع داره للامبراطور ليُدخلها في بناء القصر المشيَّد لابنه. فلمّا عرف ما صارت اليه امور فرنسة من التقهقر شعر بانّ احواله ايضاً اخذت بالانقلاب وكوكبهُ بالاحتجاب فسار في احد الأيام الى حاكم باريس باسم الامبراطور وقال له: اني قد فكّرتُ في امر داري التي طلبها مني المهندسون فانّي راضٍ بالثمن الذي عرضوهُ عليّ اعني خمسين الف فرنك»

وكان الحاكم الذي دخل اليه سيمون غير العامل الاوّل الذي عرفهُ سابقاً فسمع خطابهُ وهو لا يدري من الامر شيئاً فاجابه انّ احوال الامبراطور لم تعد تسمح له بمواصلة العمل ولا بُدّ من انتظاره ريثما تنتظم الامور ويعود السلام

فكان لهذا الكلام اسوأ وقع على قلب الكفّاف فعاد الى بيته بخفّي حنين. ثم انثنى بعد ذلك باسبوعين راجعاً الى مواجهة الحاكم فلم يرض باستقباله. فأخذ يكتب المعاريض ويكرّر المطاليب فلا احد يجيبهُ عنها فصار يعضّ البنان ندماً على ما فاتهُ من الفرصة. لكنّهُ تجلّد صابراً الى أن سمع يوماً صوت المدافع تدوي في باريس فأُخبر بان نابوليون كرّ راجعاً من جزيرة إلبه وضبط ثانيةً ازمّة التدبير

فعاد الى الكفّاف أملهُ وانتعش قلبهُ وظنّ انهُ يحظى عمّا قليل بالمبلغ الموعود وبعد ثلاثة أيّام اسرع الى حاكم جديد ولّاهُ نابوليون على المدينة وأكّد له انهُ مستعدّ ان يهب دارهُ للامبراطور حتى بلا ثمن لو اراد. فطيّب الحاكم قلبهُ ووعدهُ خيراً وقال له انّ نابوليون سوف ينجز بناء القصر قريباً وسيعطيه في حقّ الدار ستين الفاً بل وثمانين ايضاً ان شاء الله. فكان لكلام الحاكم تأثير عظيم في قلب سيمون كاد يغيب له عن الحواسّ فخرج يصرخ بملء فيه: «فليحيَ الامبراطور»

وكانت الأيام التالية لهذه المواجهة احلى في جنانه من شهد النحل لا يبرح من فكره ذكر الثمانين الفاً فبنى عليها الآمال الطيّبة وحسبها في كيسه لا محالة فكنت تراهُ ينفخ نفسهُ ويعامل رفقتهُ كأحد الذوات ويعدّد ما له من المآثر الى ان اكتشف لأجداده اعمالاً خطيرة في التاريخ. وكان يذهب الى ثكنة العسكر فيختلط بالجند

ويشدّد عزائمهم على خدمة الامبراطور وتضحية نفوسهم لنصرته. فكانوا يضحكون منهُ ويقتنصون دريهماته ليشربوا نخب نابوليون

على انَّ عودة الامبراطور الى باريس لم تكن الّا سحابة صيف وما عتّمت الدول الاوربيَّة المتحالفة ان سارت بخيلها ورجلها الى محاربة نابوليون فغلبتهُ عند قرية ڤاترلو في بلجكة واوردت جيوشهُ موارد لا صَدَر لها . فاضطرَّ ذلك الجبَّار الى ان يستسلم لاعدائهِ فارسلتهُ انكلترَّة اسيرًا الى جزيرة بعيدة تُدعى سانت هيلانة وعادت سلالة بوربون الى تدبير الامور في فرنسة

فكل هذه الاخبار توالت على مسامع السكّاف سيمون فاورثتهُ اولًا الهموم واكسفت بالهِ ولمَّا رأى انهُ لم يَعُد لكسرهِ جبر هُدَّ ركنهُ وفُتَّ عضدهُ وكان يطيل النظر الى ابنية القصر لعلَّ ملك فرنسة الجديد يُنجزها فيحتلُّها هو او يُسكنها بعضًا من اسرتهِ فكان لا يرى فيها صافرًا حتى اخذ العشب ينبت في عرصاتها

فعزم على ان يواجه اصحاب الدوائر فيعرض عليهم دارهُ ليتباعوها وأكّد لهم انهُ يكتفي بخمسين الفًا . فما ادَّى ذلك الى نتيجة ثم عاد ثانيةً وثالثةً وخفض المبلغ الى اربعين الفًا ثم الى ثلاثين فكان جواب العمال ان الحكومة ليست في حاجة اليها . فظنَّ انهُ اذا انقص تلك القيمة الى عشرين الفًا ينال المرغوب فضاعت اتعابهُ سدًى حتى انهُ لم ينل الثمن الاوَّل الذي كان حاكم باريس تبرَّع بهِ عليهِ اي خمسة آلاف فرنك

وكانت الديون في تلك المدَّة قد تناقلت وثقلت على اعناقهِ فلم يعرف كيف ينجو من غرمائهِ . امَّا السكافة فكان أهملها منذ سنتين أملًا بما ينتظرهُ من الربح المضمون فلم تَعُد يداهُ تطاوعانه على الشغل فضلًا عن انقطاع الزبائن عنهُ . فغلب عليهِ وعلى عائلتهِ ضنك العيش فمدَّ يدهُ الى رفقتهِ فابتعدوا عنهُ حتى اظلمت الدنيا في عينيهِ ولم ير وجهًا للخلاص من بؤسهِ الّا بان يبيع الدار وما يلحق بها مع ادوات حرفتهِ بمئة وخمسين فرنكًا ثم توارى عن العيان لئلَّا يشعر بهِ غرماؤهُ فيزجُّوهُ في الحبس ليؤدّي ما عليهِ من المال

عاش ذلك المنكود الحظّ هو واعلهُ بثمن دارهِ عدَّة اشهر انكد عيشةٍ . وكان اذا سدل الليل استارهُ يقوم مستخفيًا فيأتي الى نواحي حانوتهِ فيطوف حول قصر ملك رومية فيتذكر الثروة التي كادت تُسعد حياتهُ فيتأسَّف ويتلهَّف لكن لات حين ندامة

وفي صباح احد أيام شباط من السنة ١٨١٦ وجد الشرط عند سلف اكة تروكاديرو رجلاً ربّ الهيئة ممتع اللون مُلقًى على الحضيض دون حراك فظنّوهُ ميتاً الّا انّهم رأوهُ بعد قليل يتحرّك ثم رأوا بعينيه وطلب اين قصرهُ ثم غلب عليه الهذيان فكان يخبط ويخاط ويذكر ما لهُ من الغنى الواسع. فعرف الشرط بانهُ مُصاب بشعوره فنقلوهُ الى مستشفى المجانين. وعرفهُ بعض النظّار فأعلموا الاطبّاء بحالهِ. فجعلهُ هؤلاء عبرةً لابحاثهم ودقّقوا النظر في جنونهِ طول مدّة اقامتهِ في ذلك المأوى اعني الى سنة وفاتهِ في كانون ٢ من السنة ١٨٤٦ فبنوا عليهِ ملحوظات شتى

(قلنا) انّ اطبّاء الروح كانوا احرى بدرس هذا الداء في ذلك المصاب المشهور بهِ فيبيّنوا لمن ابتُلي بالطمع ما يناله من الوجع. فبهذا البيان قد صحّ قول الحكيم: من لم يقنع بالقليل لم يكتفِ بالكثير. ونعم ما قال الشاعر:

افادتني القناعةُ كلَّ خيرٍ وما عزٌّ أعزُّ من القناعهْ
فأجعلُها لنفسيَ رأس مالٍ وآخذُ بعدها التقوى بضاعهْ

مؤتمران دينيّان في عاصمة الانكليز

نظر للاب لويس شيخو اليسوعي

ان استحقّ عصرنا بان يُدعى عصر العلوم والمعارف فيحقّ لهُ ايضاً بان يُسمّى بعهد المؤتمرات. لانّ اهل زماننا قد ادركوا بالاختبار انّ الاعمال العظيمة لا تقوم الّا بالاتحاد وبجمع القوى. وليس اتحاد الّا بالتقرّب وتبادل الافكار. وهذا ما قصدهُ ارباب الدُّول واصحاب العمل بعقد المؤتمرات ان يفشوا انوار العقول الى بعضها فتتمهّد بذلك الامور وتتكشف الشبهات وتزيل المشاكل

وقد تعدّدت هذه المؤتمرات الى حدّ بالغ فمنها للسياسة ومنها للعلوم ومنها للمشروعات الخيريّة. ولو سردنا ما عُقد منها في هذا العام وحدهُ لأنافت على العشرين مؤتمرًا وقد ذكرنا منها في المشرق (ص ٧٣٧) اخبار مؤتمرين توفّقنا الى حضورهما فبيّنا ما نجم عنهما من الفوائد لتقدّم العلوم التاريخيّة والآداب الشرقيّة